أمثلة من الترجمة

Reiner Stach
Kafka. Die frühen Jahre

S. Fischer Verlag, Frankfurt am Main 2014
ISBN 978-3-10-075130-0

صفحات 9-15 & 90-103

Reiner Stach
كافكا. السنوات الأولى.

ترجمة ابراهيم مرازقة

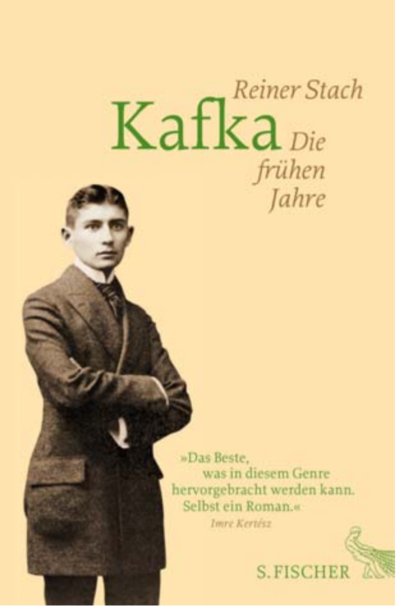

© 2015 Litrix.de

راينر شتاخ

كافكا. السنوات الأولى.

ترجمة ابراهيم مرازقة

لا شيء يحدث في براغ

Think you heard this all before,
Now you're gonna hear some more.
Devo, GOING UNDER

3 تموز 1883، يوم صيفي لطيف وساطع، الهواء يلامس بخفة أزقة المدينة القديمة في براغ، ودرجة الحرارة تصل الى الثلاثين مئوية قبل منتصف النهار. لحسن الحظ لا تصاحب الشرد رطوبة عالية؛ والسماء تزينت بغيوم غير ضارة في فترة ما بعد الظهيرة ، وهكذا ينتظر البراغيون بسرور مساءاً دافئاً ليقضائه في احدى الحدائق المحلية مع الجعة، النبيذ والموسيقى. وبما أن اليوم هو الثلاثاء فهناك العديد من حفلات الموسيقى العسكرية، وفي حديقة البيرة الواسعة في جزيرة صوفيا تعج الضوضاء من قبل الساعة الرابعة. حيث يبدأ توافد السياح والطلاب والأفنديات من البورجوازية الصغيرة، لأنه سواهم غالباً ما يضيف ساعات عمل إضافية ، وأما الذين لا يحسدون كثيراً على حظهم، كالذين

© 2015 Litrix.de

يكسبون خبزهم في مكتب لمتجر او ورشة ما، فللأسف، فهؤلاء لا يستمتعون بالموسيقى الا بعد مغيب الشمس. حتى حضور مسرحية يتعلق احياناً بمزاج المدير العام.

للتشيكيين تُعرض اليوم مسرحية "فيدورا"، الميلودراما الأخيرة للمؤلف الفرنسي الناجح "فيكتوريان ساردو"؛ أما الألمان فيمكنهم التسلي مع نستروي في مسرح الشعب حيث يتم عرض "يريد لنفسه وقتاً ممتعاً".* ولمن يعتبر هذا ثقيلا من اللازم، فلا يبقى له الا ان يذهب الى "صالة فندا للغناء" حيث تقدم الآنسة ميرتسل ليهنر، المسماة بـ"الفينيية الرشيقة"، "، "عرضها المسلي والمحترم جداً" وذلك بمصاحبة آخرين من "الكادر الفني الجديد". إنه برنامج ثقافي واضح لـ160,000 مواطن في المدينة.

براغ في الصيف.. براغ في السلام.. الساعات تمر، اسهم البورصة تتذبذب قليلاً (ولكنها تفعل ذلك منذ عشر سنوات)، تبدو الحياة وكأنها مجهضة، حتى الاخبار عن النصابين، المنتحرات والصرافين الذين حرقت متاجرهم في جريدة "براغ تاغ-بلات" او الـ"بوهيميا" غير موجودة اليوم والتي يلتهمها القراء عادةً بشراهة. في "مدرسة السباحة المدنية" حيث المسبح العام في النهر، يسقط طفل في نهر المولداو وينقذه شاب في الثالثة عشرة من العمر. هذا هو الحادث الوحيد في 3 تموز الذي يستحق نقله في الاخبار. باستثناء حالات الوفاة الطبيعية التي يطبع التقرير عنها بحروف صغيرة يكاد القارئ لا يراها الا بالبحث عنها. في زقاق هيبرن توفي وليد ضعيف لم يتجاوز عمره 18 يوماً اسمه اوغوستين، وأيضاً أماليا ذات سنتين التي توفيت بمرض السل. ولكن من يريد معرفة هكذا اخبار!

وبالرغم من ذلك ستسجل أهمية هذا اليوم في تاريخ المدينة لسببين، واحد عام واضح للعيان والثاني مخفي ولو مؤقتاً. إنها صدمة سياسية ونفسية تصيب المدينة في هذا اليوم، لم يزل القليلون على علم، ولكن في المقاهي تنتشر بسرعة الاخبار حول ما لا يمكن فهمه، وذلك قبل ردة فعل الصحافة. فقد انتهت الانتخابات لبرلمان ولاية بوهيميا، بأمر القيصر بشروط جديدة وهنا يكمن

---

* Johann Nestroy: Einen Jux will er sich machen. اوبرا من تأليف النمساوي يوهان نستروي، وتم عرضها اول مرة في 1842. المترجم.

© 2015 Litrix.de

الشيء الخطير. أصحاب حق الانتخاب، وذلك منذ بدأ الانتخاب نفسه، هم رجال فقط الذين يدفعون حداً ادنى من الضرائب في السنة، والحكومة النمساوية نصّفت فجأة هذا الحد الأدنى بموافقة قيصرية، مما أصاب أقلية صغيرة ولكن هامة بالذعر. فأي تداعيات سياسية سيكلفها لهذا القرار، يمكن لأي شخص ان يعدها على الاصابع، حتى من لا علم له بالسياسة. فعدد أكبر من الناخبين، معناه عدد اكبر من التشيكيين. وهذا بالضبط ما حدث اليوم حيث تفوق التشيكيين على الألمان في البرلمان، فلهم أكثرية متينة لأول مرة وقد يكون الى الأبد. فمن يجرء على المس بحق الانتخاب الجديد؟ فحتى الاقطاعيون الكبار بأغلبيتهم ينتخبون من الآن لصالح التشيكيين، كذلك الغرف التجارية ، والكثير من اليهود الاغنياء ينضمون الى التيار. الألمان في الأحياء التجارية المجاورة لحلقة المدينة القديمة يمسكون برؤوسهم: حتى جيرانهم القريبين القاطنين في "مدينة يوسف"، غيتو براغ القديم، صوّتوا مع التشيكيين، وبكل سخرية تتردد النكتة.. أن اللحامين اليهود هم من رجحوا الكفة بالتالي، وهم أناس لم يسمح لهم ابداً من قبل ان بالذهاب لصناديق الاقتراع.

بالطبع فإنها أقلية من سكان براغ التي تهتم بعمل برلمان بوهيميا، وحتى في صفوف البرجوازيين المثقفين المنتمين الى أي من اللغتين فان القراء الأشداء فقط من الذين يعلمون ملياً ما هي صلاحيات هذا البرلمان، وما هو تأثيره على العلاقات التشيكية–المانية في الحياة اليومية. ولكنه فوز رمزي للتشيكيين، وهو الأهم بلا منازع حتى ذلك الوقت، وهذا يفهمه الكل، ولذلك فهو "تاريخي". والخاسرون يرون هذا الحدث بنفس الصورة. حتى نبرتهم قلّت حدتها، وردة فعل الصحافة الألمانية متحفظة، فهي لا تريد اثارة التشيكيين الذين يعيش معهم الألمان في كل احياء المدينة في نسيج اجتماعي واحد، وكذلك لا تريد هذه الصحافة ان تخسر مشتركين دائمين. الـ"نويي فرَيي بريسي" [Neue Freie Presse] وحدها تكتب جهراً وبصراحة. فيمكنها ان تتحمل كتابة ذلك لأنها بمثابة المنشورة المفضلة على الليبراليين، الناطقة بإسمهم، والتي توزع في كل انحاء براغ. وهنا يتم اعلام المواطنين البوهميين انهم وبتصرفهم الاحمق في الانتخابات يقامرون على نهاية الغرب برمته: "ترى هل هو مسموح ان تصل براغ لمرحلة تغمر فيها بالطوفان السلاڤي؟" كلا وألف كلا. "قد يختفي المندوبين الألمان من بناية البرلمان في العاصمة، ولكن الشعب الذي يملأ الشوارع والبيوت

© 2015 Litrix.de

سوف يبقى، حتى يأتي اليوم الذي يضع فيه نهاية للإصلاح السلاقي المضاد، وسوف ترجع براغ كما كانت، مركزاً لثقافة إنسانية ألمانية."[1]

هذا غليظ جداً، أغلظ من أن تقبل به الرقابة في فيينا، والتي ستصادر الجريدة بعد بضعة أيام. مع ذلك فإن النبرة العدائية، والغضب الشوفيني يكشف عن فهم جيد لأهمية هذا اليوم تاريخياً. ولطالما أمسكت عُلّيّة بالقوة بين ايديها، ولكن الوضع تغير الآن فسوف تحكم الأكثرية، وذلك بشرعية النسبة، ليس إلا. حيث ان في براغ – وذلك لن يتغير – النسبة هي واحد الى أربعة لصالح التشيكيين. ماذا سيحصل لو ان مبدأ الأكثرية هذا سوف يعم المملكة كلها؟ عندها سوف يُتهم البوهيميون انهم كانوا الحلقة الأضعف في السلسلة، وأنه في الثالث من تموز 1883 بالضبط انكسرت السلسلة في عاصمتهم.

لم يسجل كل البراغيين الزلزال السياسي الذي حصل في البرلمان البوهيمي، بل أبعد من أن يكونوا عن ذلك. الحياة الحقيقية تستمر في مكان آخر، ومن توفي له طفل باسم أوغوستين او أماليا، فإن السياسة تغيب عنه لمدة طويلة. وكذلك الذين يمكنهم أن يحيّوا وليداً جديداً. فهم ايضاً يتخطون العتبة الى مرحلة جديدة، ليمروا بتجربة نحو بداية عهد جديد لا رجوع عنه. وبمجرد حضور المولود الجديد .. يغيب العالم المتبقي في حرارة جسمه .

وهذا بالضبط ما حصل اليوم في منزل بقرب كنيسة سانت نيكولاس، بزاوية زقاق مايزل وزقاق كاربفن، حيث يعيش الزوج كافكا المتزوجين منذ عشرة شهور فقط. رغم أن العنوان ليس جيداً بشكل خاص ، إلا أنه مرت أيام أفضل على هذا المنزل ، فقد كان ذات مرة مسكن مطران دير ستراخوف المشهور، ولكن لم يبق الكثير من الرونق والفخامة باستثناء الواجهة المبنية على طراز الباروك. منذ زمن تحول المنزل إلى مكان للسكنى، والحارة ابعد من ان تكون جيدة، ولا تصلح لشبك علاقات جديدة. ومن الجهة الأولى الكنيسة حيث يقيم بها الروس-الاورثوذكس طقوسهم المكفهرة، ومن الجهة الأخرى عصابة لصوص مشكوك بأمرهم وحتى بيوت دعارة تكاد تتبع لحي "مدينة يوسف". حي مهمل وهَدْمُه كما يقال شيء مؤكد.

© 2015 Litrix.de

عائلة كافكا لن تبقى هنا طويلاً، مفهوم ضمنياً، ولكن عليهم التوفير حالياً. فقد استثمروا كل ثروتهم – وهذا يعني مهر السيدة يوليا – في متجر انشأوه حديثاً لتجارة الحرير والصوف، وهو ينتظر الزبائن ليس بعيداً عن الطرف الشمالي لحلقة البلدة القديمة. المالك الوحيد هو هرمان البالغ الثلاثين من عمره، ومع ذلك يجب ان تعمل زوجته التي تصغره بثلاث سنوات في المتجر طوال اليوم، وإلا فإن المتجر لن يدوم. لا يبقى الكثير من الوقت للزوجين، حتى اسبوعهم الأول تنازلوا عنه وذلك لكي لا يخسروا شيئاً من براغ، وكما أن الحَمْل ليس بالضبط الشيء النافع لحياتهم التي بالكاد يمكن اعتبارها ثابتة، وطبعاً لا حاجة لذكر المربية والمرضعة اللتان يجب عليهم تمويلهما من اليوم فصاعداً.

ولكنه صبي، وفي عالم منظم بشكل ذكوري وابوي – وهرمان ويوليا لا يعرفان عالماً آخراً – يعني الصبي الكفيل للمستقبل. هو العضو القادم في سلسلة الأجيال التي تربط الفرد، تقوده، وتعطي لعمله معنى فوق-زمني. حتى الآن كل ما اراد الزوج كافكا هو الصعود بالتراتبية الاجتماعية، والآن يشعرون ايضاً أن هذا الهدف أكبر من وجودهم الارضي، ولذلك لا يمكن الطعن به. الوليد الجديد هو "وريث"، وذلك قبل ان يستطيع القيام بخطواته الأولى. وذلك ليس فقط بحسب رؤية أهله، بل في نظر الاقرباء، الزملاء والزبائن، حيث تغيرت المكانة الاجتماعية للزوج كافكا بين ليلة وضحاها، ما حصل هو مثل الترقية في العمل، بل واكثر من ذلك، لأنه لا يمكن فصلهم من المكانة الجديدة – الا في حالة موت الوليد.. ولكن لا أحد يريد التفكير بذلك. الصغير "ولد ضعيف ولكنه معافى"، كما ستكتب الأم بعد سنوات كثيرة،[2] سوف يبقى حياً وسيكون وريثاً، ذاك الذي سنضحي بأنفسنا من أجله وبسببه سنكون جزءاً لا يتجزأ من الكل الواسع. ولذلك فإنه من العدل والانصاف ان نطلق عليه اسم قيصرنا. نعم، سيكون اسمه *فرانتس*.

أن الأمور لن تسير على الطريقة التي حلُم بها الزوج كافكا، فذلك يعلمه العالم بأسره بعد مئة عام. فعلى مكان سكناهم الأول سيعلق لوح تذكاري، ليس لرجل أعمال، بل لكاتب. التسلسل العمودي للأجيال التي تجددها العائلة دائماً وترسيها عضوياً في العالم، سوف يتضح انها هشة وفانية تماماً ككيان الفرد المنعزل. مئات الالوف مثل هذه السلاسل سوف تقطع وتمحى

© 2015 Litrix.de

بشكل عنيف، وذلك في قيد حياة أهل فرانتس كافكا. لكن ذلك التاريخ، الثالث من تموز 1883، الذي سيكون بالنسبة للبراغيين يوم الصحوة التي لا سبات بعدها، وبالنسبة للزوج كافكا يوم الفخر والسعادة – ذلك اليوم سيكون له معنى جديد، مغاير.

وكذلك القيصر الذي سمي على اسمه كافكا، فرانتس يوزف الأول، ابن الثانية والخمسين، يقضي هذا اليوم بمزاج مرح. فهو يقيم يومها في كراتس ويقوم بالبرنامج المعتاد: قداس في الكنيسة، افتتاح معرض عن الجغرافيا، زيارة تفقدية لرجال الإطفاء ومشفى الجيش، استقبال وفود ونبلاء، ومأدبات مديدة. وفي متخلل ذلك قراءة برقيات داخلة، وبعضها القادمة من براغ، حيث نال التشيكيين – كما هو متوقع – ارادتهم اخيراً. ولكن هذه المتاعب سوف تغطيها صيحات التعظيم التي يطلقها سكان كراتس الذين أُخرجوا الى الشوارع، وكذلك الواجبات الاكثر طرافة التي تحسن من مزاج القيصر. على سبيل المثال، زيارة الرماة الشتاينماركيين، أوفى الأوفياء، في "موقع الرماية الريفي" المزيّن بالزهور والأعلام، والتي يقوم بزيارتها للمرة الأولى. إن هؤلاء الرماة شديدي الحماس، فقد أخافوا جياد الموكب الملكي بالاطلاق الناري الذي لم ينته، إلا بعد أن اضطر القيصر أن يصدر أمراً بوقفها. ورغم ذلك فإن الاستقبال في مضمار الرماية كان آسراً للمشاعر، نساء تزيّنت بزيّ قد صاحبن العرض، وصبايا رشيقات تقدّم باقات الزهور. ولكن الرماة لا يريدون من سيدهم الأعلى سماع كلمات جميلة فقط، كلا، بل يجب عليه ومفضل ان يستعمل يده اليوم، القيصر يجب ان يجرب مضمار الرماية بنفسه وأن يفتتح مهرجان الرماية. وباحتفالية رافقوه الى البنادق المعدة مسبقاً، المشاهدون ينتظرون بفارغ الصبر. يمعن النظر بالهدف مرتين، يرسل الطلقة الأولى فتصيب الاطار، انها "واحد". اطلاق مفرقعات نارية، لكي تسمع كل المدينة، وبعدها تصاعدت هتافات لا متناهية من حشد من الألوف.

© 2015 Litrix.de

كافكا فرانتس، طالب ممتاز

كل الموانئ

كانت بأجمل حلة حين أضاءتها

المراسي

داغمار نِك، حوارات الظلال

كان ذات مرة غراب واسمه كافكا أصله بوهيمي، ولكنه اعلن رفضه لهذا الاسم اكثر من مرة. "لا اريد أن ادعى كافكا"، قال، "فان كل الاسماء التي تنتهي ب"ا" هي اسماء مؤنثة، مثل ماريا، أنّا، يوهانا، أماليا... ولكني رجل، ورجل ذكي كذلك، ولذلك يجب عليكم ان تدعوني كافكوس، كما يليق بسيد مثقف. ومن الحماقة أنهم يدعونني الغراب، عندما يدعون ابن عمي أسود الأبقع، سواء كان صبياً أم صبية. ولكن انا لن اقبل بذلك! اسمي كافكوس! انتهى!" ولكنه لم يقل "انتهى"، بل "كاف كاف"، او بالواقع "كا كا".

مخترع هذه الاسطورة، طبيب النساء والشاعر البراغي هوغو سالوس، الذي كان على علم بما يقول.[1] فقد كان اسم جده كافكا أيضاً، حاخام وعلامة ذات صيت، وقبل ان يبدأ مسيرته المهنية فقد سكن في نفس البيت مع أب جد فرانتس كافكا في فوسيك وقد كانا بالتأكيد قريبين. لا يعير الاطفال لاسماء العائلة أهمية كبيرة، ولا يتعلموها الا في مرحلة متأخرة نسبياً، ولكن بالنسبة ل"كا كا"، فهذه يعرفها الاطفال من صغرهم، وهكذا لا يبقى شك ان سالوس لم يخترع اسم الشهرة المزدري الذي يهين الغراب به نفسه، وإنما يتذكر ذلك وحسب.

© 2015 Litrix.de

أن يسخر منه اشخاص غريبين عنه اطلاقاً او حتى ان يهاجموه دون ان تتدخل سلطة ما أعلى لحمايته، هي واحد من المفاجئات الأساسية التي يعاني منها الطفل، وذلك لحظة دخوله الى مسرح الاحداث في غرفة الدراسة. فرانتس كافكا كان طفل محروس، الذي قضى ست سنواته الأولى في قفص فسيح. كان هنا أعداء أيضاً، بالتأكيد، ولكن كانت هناك هيئة للاستئناف قريبة دائماً يمكن نداءها، وكان هناك امكانيات كثيرة لتقديم الشكاوي ولمسح الدموع. ولكن في يومه الدراسي الأول في 15 ايلول 1889، انضم الى زمرة من الزملاء الذين يشاطرونه نفس العناء، أغلبهم أكثر شغباً وقوة، بعضهم أذكى وبعضهم ايضاً بلباس افضل. كانت صدمة التي هونتها على كافكا معرفته لبعض الوجوه من قبل. كل الأولاد في جيله كانوا من سكان البلدة القديمة، معظمهم من اليهود المتحدثين الألمانية كلغة أولى. وقد رأى أسرهم على الحلقة او حتى في متجر والده، وقد كان له معارف شخصية التي توصل اليها عن طريق الجالية اليهودية وعن طريق اتحاد النساء اليهودي. وهكذا فإن هوغو بيرغمان وهوغو هيخت الذين وثّقا بعد عقود ذكرياتهم عن أيام المدرسة المشتركة مع كافكا، من المحتمل انهما التقيا بكافكا قبل يوم المدرسة الأول، حيث عرف الأول العاب الآخر.

على المقاعد الخشبية الصلبة في "المدرسة الابتدائية والاعدادية الألمانية في براغ أ" لم يكن لذلك أي أهمية، فهنا لم يسأل أحد جانب من يريد الجلوس، القصار في الأمام والطوال خلفهم، هكذا تقول التعليمات الصارمة. وكان من المخيف ايضاً أن المرء لم يعد يدعى ببساطة "فرانتس"، بل يسموه بالاسم الشخصي واسم العائلة، وكان ذلك يذكّر بصور التعامل بين البالغين. فباليوم الأول، قرأ المعلم، السيد ماركرت، بترتيب ابجدي أسماء الطلاب، وكل واحد كان عليه أن يصرخ من حنجرته معلناً وجوده: "كافكا فرانتس؟" "حاضر!" وبعد ثوان اتضح انه هناك "كافكا كارل" أيضاً، ولم يكن ذلك غريباً في براغ.[2] من ثم تم إعلامهم بمجموعة من قواعد اللعبة والتحذيرات المعهودة، وكان هذا كل ما هناك في اليوم الأول. في الخارج انتظرت الأم التي كانت في حَمْلِها

© 2015 Litrix.de

المتقدم، مع السيدة هخت التي انتظرت ابنها هوغو، وكذلك ذهبوا اربعتهم الى البيت.

لم تكن هذه البناية الحديثة ذات الطوابق الأربعة مثيرة للإعجاب، والتي كانت الواقعة بجوار سوق الجزارين، بأثاثها المتواضع وفنائها الصغير نسبياً ليكون صالحاً للإستراحات. ولكن هل كان لديهم خياراً؟ الاثرياء أو هؤلاء الذين ارادوا ان يصبحوا ذلك لم يبعثوا أطفالهم إلى المدارس العامة، بل إلى معاهد خاصة كمعهد رابطة البياتريسيين.* فكذلك فعل أبَوَيْ ماكس برود وفرانتس فيرفيل – فالأول موظف بنك طموح والآخر كان صاحب مصنع. ولذا فان البياتريسيين طلبوا أجرة عالية مقابل سمعتهم الجيدة في التعليم، صفوفهم كان يسيطر عليها اطفال من عائلات يهودية المانية برجوازية من المدينة الحديثة (والذين كانوا يرددون وبكل أدب الدعاء الكاثوليكي كل صباح)، أما بائع أقمشة من البلدة القديمة، والذي لم يزل غير قادراً على تقديم عطلة سنوية لعائلته، وهي شيء شبه إلزامي، فإن وجود ابنه في وسط كل بدلات البحارة هذه المصنوعة من اروع الاقمشة لم يكن مناسباً بالتأكيد. وكان معروفاً أن المعلمين في معاهد البياتريسيين يحسّنون من أجرتهم بواسطة ساعات الخاصة والاضافية ومثل هذه المكافآت كانت نوعاً من الضمان لعلامات جيدة في المدرسة. وبكل تأكيد لم يكن الزوج كافكا قادراً على تحمل هذه التكاليف. عندما شكى اغون ارفين لاحقاً عن انه عومل مثل الأندردوغ** لأنه من البلدة القديمة، شعر كافكا بالارتياح لأنه لم يكن مجبراً على هذه الإهانة والإحراج.[3]

والآن بقي على الأبوين القرار إن كان على فرانتس الصغير أن يتعلم بالألمانية أم بالتشيكية – سؤال صعب، الذي يجب موازنة المع والضد بدقة للإجابة عنه. حسب الدستور فإن كلتا اللغتين كانتا متكافئتين ومتساويتين في الحياة العامة، أي أن ذلك صحيحاً في المدارس أيضاً، ولم يجبر أي طفل على تعلم لغة ثانية، لكي يكون قادراً على التعلم في المدرسة – بند لحماية اللغات، الذي

* البياتريسيين هي رابطة كاثوليكية للرجال، وتم علمنة مدارسها في القيصرية الاوسترو–هنغارية من بعد 1869، وكان لها مدارس خاصة في بوهيميا [المترجم].

** بالاصل الانجليزي Underdog: خاسر، اقل شأناً من غيره. [المترجم]

© 2015 Litrix.de

أدى إلى أن يتطور نظامين مدرسيين متكاملين في كل بوهيميا وأن يعملا بشكل متواز.[4] ولكن في براغ تم تفضيل المدارس التشيكية، ولم تتردد ادارة البلدية في ممارسة الضغط على الأهالي من أجل دفع عملية فرض وتعميم الثقافة التشيكية في المدينة. تاجر يهودي طموح الذي يريد دفع اندماجه في المجتمع الى الأمام وبالتنسيق مع السلطات في براغ، فإنه من المستحسن له أن يقدّم نفسه على أنه تشيكي مخلص، وهكذا من المفهوم ضمنياً أن يسجّل هرمان كافكا في تعداد السكان في العام 1890 أن "لغته الدارجة" هي التشيكية. وكان يمكنه فعل ذلك بقناعة وضمير لأن معظم زبائنه (وطاقم العمل في متجره كذلك) كانوا من التشيكيين، ولو أنه ابرز نفسه بشكل قوي على أنه "ألماني" أو أسوء "ألماني يهودي"، لأحس بالتضعضع الاقتصادي في متجرة بسرعة فائقة.

من جهة أخرى، اللغة الألمانية كانت تقليدياً لغة العلم والثقافة، وحتى في أبعد الأماكن في الريف، وفي القرى التشيكية، كان معتاد منذ قرون أن يبعث اليهود أطفالهم الى مدارس ألمانية – كما يعرف هرمان من تجربته الخاصة. الألمانية كانت بالاضافة لذلك لغة القوة، لغة فيينا، ولذلك كان التعليم في مدرسة ألمانية شرط ضروري من اجل لممارسة مهنة في الاكاديميا أو أي "مهنة عالية". عندما يفكر إلى ما هو أبعد من وضعه ومكانته الاجتماعيين الحاليين – وأن ابنه سوف يترك خلفه هذا الوضع ويذهب الى أبعد مما هو مؤكّد ومضمون بالنسبة لهرمان – عند إذن يتضح له أن الدراسة في مدرسة ألمانية تؤهل الى إمكانيات أفضل. بالاضافة لذلك فهي بمثابة بيئة حيث غالبية الطلاب فيها من اليهود الألمان من عائلات تجار، ولذلك فلا يخاف على ابنه من اعتداءات لا-سامية. والأهل سوف يرعون التشيكية لكي لا تهمش ويكون فرانتس مستعداً للتعامل مع زبائنه لاحقاً.

هل كان عند الصبي ابن السادسة ادنى علم بأن اللغتين اللتين كان ينتقل بينهما أكثر من مرة في اليوم الواحد، أنهن يمثلن ثقافتين متعارضين وبينهما عداوة أبدية؟ يجب الشك بذلك. ولكن بالتأكيد قد لاحظ في منطقة سكناه أن كل الاشغال المتواضعة كان ينجزها أناس لا يتكلمون الا التشيكية. ولكن لم تكن هناك أي عداوة مع هؤلاء الناس، بالعكس كان هناك عيش مشترك معهم، وكأعضاء يقومون بأشغال معينة كانوا قسم من سلطة وقوة الوالد، وبعضهم عاملتهم الأم

© 2015 Litrix.de

كأنهم قسم من العائلة. خارج هذا الإطار العائلي المباشر كان هناك الشارع، أو كما كان الناس يقولون في براغ "الزقاق"، وهناك سادت قوانين مختلفة تماماً، كما عرف فرانتس بسرعة فائقة. على بُعد بعض خطوات كانت هناك عمارة، وأمام مدخلها كان تمثال لعالِم التربية يان كومنسكي (كوميوس) ومن تحتها كان مكتوب - وعلى ما يبدو - لكي لا يكون أي لبس: "الطفل التشيكي ينتمي الى مدرسة تشيكية". اذن فكانت هذه أيضا مدرسة ابتدائية، وكانت — كما سيبدو لاحقاً — المنافِسَة التي لا يمكن تفاديها في البلدة القديمة المتشابكة لأبعد حد. فُتوات وأشخاص عنيفين مع دوافع قومية كانت موجودة حتى عند الصغار، في كلتا الجهتين، وهكذا كان على المرء أن يتوقع تورطه في اعتداءات من "التشيكيين".

والدي كافكا كانوا على علم بهذا الخطر، وعندما فكروا ببُنية ابنهم التي لا يمكن وصفها بالقوية، والتي ستكون الآن معرضة لعدد من الفتوات في الزقاق، فلم يظنوا عندها أن لديهم خيار بأن يخففوا من المراقبة الصارمة التي وضعوها الى الآن على ابنهم. لقد قرروا — أو بالأحرى، قررت أم كافكا — أن ترافق إحدى الشغالات فرانتس الصغير الى المدرسة ذهاباً وإياباً. وكانت هذه احدى الترتيبات النموذجية للزوج كافكا، وذلك لأنها تمت بنية طيبة وبنفس الوقت كانت عمياء من ناحية تربوية. فبعد بضع ايام كان كافكا الوحيد من بين الطلاب في الصف الذي كان يمشي الطريق القصيرة ومن ناحية السير العام الغير خطرة تحت مراقبة فقط، الوحيد الذي لا يمكنه التجول ولو لبعض الدقائق في سوق الجزارين المجاور للمدرسة، في الأروقة، في أفنية سرية. ما كان معتاداً عند البياتريسيين — فقد استوجب الغرور الطبقي أن يتم ارسال الأطفال مع الموظفين — أثار انطباع مغاير في المدرسة العامة، فهناك كان هذا بهرجة وحَكَم على الولد المصون أن يكون غريب ودلوع والدته.

في عقود لاحقة تذكر كافكا الطريق الى المدرسة بانزعاج عظيم. فبسبب عطف الوالدين سدت الفسحة الأخيرة أيضاً، وهي ما بين التراتبية العمودية في البيت، والتي احتل بها المكان الأخير، والنظام التراتبي أيضاً الذي وجده في المدرسة. كان ذلك كما لو أن القوة البيتية والعامة

© 2015 Litrix.de

تداخلتا بشكل مباشر، دون أن تترك أثراً للفسحة الضيقة التي تمتع بها الأطفال الآخرين. وفي متخلل ذلك لم يكن الوالدين هم الوحيدين المسؤولين عن هذا الوضع، بل فإن الشغالة التشيكية، فرانتيشكا، كان لها دور بذلك أيضاً، فقد تمتعت بممارسة سلطتها المعذّبة على ابن المشغِّل في الفترة الزمنية القصيرة المتاحة لها.

الطباخة في بيتنا، ضئيلة، ناشفة، نحيفة، حادة الأنف، مجوّفة الخدود، صفراء، ولكنها جامدة، نشيطة، قادتني بشعور من التفوق إلى المدرسة في كل صباح. كنا نسكن في البيت الذي يفصل الحلقة الصغيرة عن الكبيرة. فبداية مشينا في الحلقة، ومن ثم دخلنا زقاق تاين، ومن ثم مررنا من خلال ما يشبه عقد بوابة الى زقاق سوق الجزارين، ومنه نزلنا الى سوق الجزارين. ومن حينها تكرر الشيء كل صباح لمدة سنة. حين خروجنا من البيت قالت الطباخة انها سوف تحكي للمعلم عن أني لم أكن مؤدباً في البيت. قد يكون صحيحاً أني لم أكن مؤدباً جداً، ولكن عنيد، غير متعاون، تعيس، شرير، وسيكون هذا كاف لتجميع شيء حسن للمعلم. لقد علمت ذلك ولذلك لم استخف بتهديدات الطباخة. ظننت بداية أن الطريق إلى المدرسة بعيد جداً، وانه قد يحدث الكثير خلال ذلك (ذاك الطيش والخبل الصبياني طوّر تدريجياً التوجس عندي وتلك الجدية التي تشبه جدية من ينظر بعيون الموتى)، ومع ذلك حينما كنا ما زلنا على الحلقة كنت أشكك إن كانت الطباخة، وإن كانت شخص ذات قدر ولكن في البيت فقط، سوف تجرأ على الحديث مع المعلم وهو شخص ذي قدر في العالم. ربما قلت لها شيء بهذا المعنى ذات مرة، وردت الطباخة كالعادة بشفاهها الدقيقة عديمة الشفقة، ليس محتوماً أن أصدق، ولكنها ستحكي له ذلك. بقرب المدخل الى زقاق سوق الجزارين رجحت كفة الخوف من التهديد. واليوم الدراسي قد بدأ، والمدرسة بحد ذاتها رعب مستمر، والآن تريد الطباخة أن تثقل علي أكثر. بدأت بالتوسل إليها، صارت تهز برأسها، وكلما توسلت أكثر هكذا بدا لي أن

© 2015 Litrix.de

ما أتوسل من أجله أسمى قيمة، وكذلك بدى الخطر أكبر، توقفت وبدأت أطلب العفو، شدتني إلى الإستمرار، هددتها بعقاب الوالدين، ضحكت، هنا كانت متفوقة علي جداً، تعلقت ببوابات المتاجر، بزوايا الشارع، لم أُرد الإستمرار قبل أن تغفر لي، شددت تنورتها للتتوقف (لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لها كذلك) ولكنها جرّتني الى الأمام ومع تأكيدها أنها ستحكي للمعلم عن هذا أيضاً، تأخر الوقت، قرع جرس "كنيسة يعقوب" الساعة الثامنة، يمكن سماع صوت الجرس، الطلاب بدأوا بالمشي، أكثر ما كان يخيفني هو التأخير ، والآن كان علينا المشي سريعاً أيضاً والتفكير كذلك "ستقول.. لن تقول". بالتالي لم تقل ذلك، ولا مرة، ولكن دائماً كان لديها الإمكانية، بل وحتى إمكانية تكبر وتتعاظم مع الوقت، كما بدا لي (البارحة لم أقل، ولكن اليوم سأقول حتماً)، وهي لم تترك هذه الإمكانية أبداً.[5]

هل يمكن قراءة هذه النوادر حرفياً، هل رسائل كافكا مصدر ثقة عن حوادث حياته؟ الصياغة الملحمية واضحة، التي يعطيها لذكرياته، فهو يريد أن يسرد، أن يعطيها طابع مشوق. وبسبب هذا الأسلوب الأدبي بالتحديد، فهو لا يورد انطباعاته التي حفظها بالذاكرة بتسلسل، الواحدة تلو الأخرى، ويصورها لنا، بل يردّها الى اصلها البيوغرافي. وهذا الأصل هو تجربته مع القوة والإذعان، بحيث يركّز على إجراءين لاستعمال القوة، تقنيات التدخل، والتي سوف تصبح لأحدى المواضيع المركزية في عمله الأدبي والذي سوف يتعامل معه من وجهات نظر مختلفة. التقنية الأولى هي عملية كسر الحدود بين الخصوصي والعام: ببداهة محزنة يتم استعمال المعلم ومعه كل مؤسسة المدرسة كذراع أخرى للقوة البيتية (وبكل تأكيد ليس فقط لقوة الأب)، وهكذا يبدو لفرانتس معقولاً جداً أن يكرس السيد ماركرت اهتماماً كبيراً بتصرفاته الغير مؤدبة التي قام بها بالبيت — في حين علم بذلك. والتقنية الثانية هي الإيماءات التهديدية المتواصلة التي تشل حركة المتهم، وذلك بواسطة إدخاله إلى عالم من الخيال الذي يتصور فيه أشنع صور العقوبة. أي الإجراءات سيتخذها المدرس تحديداً عندما يتضح أن في الصف يجلس مجرم في السادسة من عمره. ولا تحتاج فرانتشكا

© 2015 Litrix.de

القاسية أن تصف له تلك الإجراءات، فهذا السيناريو المتخيل يكبّل الجاني في تسلسله، فهو يفعل ذلك من تلقاء نفسه. وبما أن الإختبار الحقيقي لم يجرِ أبداً، فلا يسمح له حتى بالفسحة الأخلاقية التي تمنحها العقوبة عندما تقضى. التهديد يؤثر أكثر من تنفيذه، هذه إحدى القواعد البسيطة لل"تربية السوداء"، محببة على برجوازية القرن التاسع عشر ومنتشرة في صفوفهم، كذلك عند الزوج كافكا، كما لاحظ الشغالين بكل وضوح، وتم تنفيذها بشكل ناجح. لعقود بقي كافكا حاقداً على ألعاب القوة التي يتم التستر عليها باسم التربية، فحقده كان عظيماً لدرجة أنه رفض بشكل قاطع أن يلتقي بإحدى مربياته. "لماذا ربتني بشكل سيء لهذه الدرجة؟" كتب كافكا، "كنت مطيعاً بلا شك، إنها تقول ذلك الآن ... كان طبعي هادئ ومؤدب. لماذا لم تستعمل ذلك لمصلحتي وأعدتني لمستقبل أفضل."[6]

قوة وعي الذنب متفوقة وهي تشل الحركة، وقد صفها كافكا في حسابه مع والده في صورة لائحة اتهام محررة ببلاغة شديدة، فهذا الوعي هو مثل جبل الذنوب الأخلاقية الذي يتضخم بشكل مستمر، ذنوبه تجاه الأهل، وبالتالي ذنوبه تجاه العالم بأسره، كل هذا قد يكون حصيلة لتطورات متأخرة وهو تعبير متسامي لمتلازمة من الخوف التي تصل الى أعماق نفسه. إن الذي أحسه ابن السادسة ليس بالضبط الذنب، بل هو الخوف المحض – الخوف من الضرب، من الصراخ ومن تفوق الأب الجسدي، خوف من انصراف الأم عنه، من الوحدة. كافكا تعلم مبكراً أن الوضعية التي تثير الخوف مبدئياً لن تكون عواقبها جيدة. فإما أن اللكمة التي يخافها سوف تأتي بالفعل – ولكن الضرب الجسدي كان نادراً جداً في بيت كافكا –، أو أن يتم الغفران للمرء ولكن بشكل مؤقت فقط وفي ظل تهديدات لا تنتهي. ما كان ناقصاً في حقل القوى هذا هو تجربة النجاح، العمل الموفّق، حكم بالتبرئة – وذلك ليس فقط لأن الأب لم تكن عادته أن يمدح، ولكن أيضاً والأهم، لأنه كان يقوم بالواجب من دافع الخوف، ولذلك لم يكن يرى به انه عمله الخاص ولذلك لم يكن فخوراً به.

حمل ابن السادسة هذا الخوف معه إلى المدرسة – وزادت الطباخة خوفه عندما صوّرت المعلم بأنه نائب في مكان الأب، ومن ثم توزيع العلامات الفصلية كل ثلاث شهور، والتي قُصد بها

© 2015 Litrix.de

الأهل أيضاً، بتجاهل تام للطلاب. لم يفهم كافكا أبداً – وهذا لم يتغير طوال سنواته المدرسية — أن مؤسسة المدرسة لا تُدرك او تُقيّم الإنسان ابداً، بل قدرات معينة ومحددة، ولذلك فإن معايير النجاح والفشل هنا تختلف عن المعايير المتبعة في محيط العائلة. ولكن ما أعلنه الأب أن تحصيله في المداومة والمثابرة "غير كاف"، ولهذا فإن الشيء ذاته يجب أن يحصل في المدرسة، أي شيء غير ذلك مستحيل. لأنه إن كانت التربية هي "مؤامرة الكبار" — بهذه الكلمات وصف كافكا هذه التجربة لاحقاً – فمن المستحيل أن يكون تناقض موضوعي بين الأب والمدرس.[7] بكل الأحوال، كان يمكنه الأمل أن ما يراه الرب سبحانه أن يبقى مخفياً عن المدرس لبعض الوقت، وكان هذا الأمل الأخير هو ما حاولت الطباخة ان تدمره — وهي تدري بكل لؤم كم حساسة هذه النقطة. وماذا تعني بالتالي كل العلامات، التوصيات والترقيات في مقابل ذلك؟

> كنت اظن أني لن أنهي أبداً الصف الأول الابتدائي بنجاح، ولكني نجحت، وحصلت على جائزة حتى؛ لكني سأرسب بالتأكيد بامتحان القبول للمدرسة الثانوية، ولكني نجحت؛ ولكنى سأفشل بكل تأكيد في الصف الأول الثانوي، كلا، لم افشل ونجحت مرة تلو الأخرى. ومن ذلك لم اكتسب اي ثقة، بالعكس، كنت دائماً مقتنع — وتعابير وجهك الرافضة كانت برهاناً — أنني كلما نجحت اكثر فالعاقبة ستكون أسوء. في كثير من الأحيان تخيلت في نفسي اجتماع الأساتذة (الثانوية كانت اكثر الأمثلة وضوحاً، ولكن كل الأشياء حولي كانت متشابهة)، كيف أنهم - في السنة الأولى حين نجحت بها، في السنة الثانية حين نجحت بها، في الثالثة الخ — سيجتمعون ليفحصوا هذة الحالة الخاصة والصارخة الى السماء، وهو أنه كيف كان باستطاعتي، أنا من هو أقل الناس مقدرة وعلماً، أن أتسلل صاعداً حتى هذه المرحلة الدراسية، وبما أن كل الأهتمام كرّس لي في هذه اللحظة، فإنهم سوف يبصقون علي حالاً، حينها ستتعالى أصوات التهليل والهتاف من حناجر أهل العدل الذين تحرروا الآن من قبضة هذا الكابوس. أن يعيش طفل مع هذه التصورات، فهذا ليس سهلاً. ولماذا لأكترث

© 2015 Litrix.de

في هذه الظروف للمادة الدراسية؟ من كان بإمكانه أن يدفعني ولو قيد أنملة الى المشاركة في الصف؟ كنت مهتماً بالمادة الدراسية، وليس فقط بالمادة الدراسية، بل بكل شيء يحيط بي في هذا المرحلة العمرية المفصلية، وذلك مثل مختلس من بنك الذي مازال في مهنته، يرجف خوفاً من أنه سيتم اكتشافه، ومهتم بالمعاملات الصغيرة التي عليه ان يتممها كموظف. بهذا الصغر كانت كل الاشياء مقارنة بالشيء المركزي.[8]

لو قرأ هرمان كافكا هذا الإعتراف المتأخر والموجهاً اليه لناقض هذا ذكرياته الخاصة بشكل صارخ، بحيث أنه لن يتعرف على الطفل الذي يتكلم عنه النص. لأن فرانتس كان منذ الصف الأول طالب مريد للعلم، مهذب، مقبول على المدرسين، ما كان يدعى "طالب ممتاز"، علاماته تَفُوق المعدل بكثير، والذي لم يكن أدنى شك بترقيته من صف إلى التالي.[9] حصل على أعلى العلامات في القراءة، الكتابة، الحساب، المدنيات، الدين، الغناء والرياضة، ولا ننسى الاجتهاد والأخلاق و"ب" في الرسم فقط: هكذا بدت شهادة التقدير السنوية في آخر السنة الأولى. والمشغلين في البيت الذين كان يرعونه الى حين يعود الوالدين في المساء، كان يمكنهم التأكيد أن الصبي كان جِدي في دراسته. عجيب أن كل هذه الطاقة مخزونة في هذا الجسم النحيل. أنه كان يدرس من دافع الخوف أكثر منه من دافع حب الإستطلاع أو الطموح، كان يمكن هرمان ويوليا ان يعرفا ذلك بسهولة بالغة. إن كان ذلك قد أقلقهم، على المرء ان يشك بذلك، لأنه حسب مفهومهم — مفهوم برجوازية القرن التاسع عشر - كانت التربية هي عبارة عن عملية تشكيل وتدجين، والحب للأطفال هي بمثابة مَزِيد محمود.

خروجه الأول الى الحيز العام في وسط متجانس من المعارف كان يعني بالتأكيد انفراج كبير لابن السادسة: حوالي ثلثي زمائله كانوا من عائلات تجار يهود المان، كلهم سكنوا في المدينة القديمة وكانوا ثنائيي اللغة، لم يكن في الصف طالب واحد من عائلة عمالية، او من سكان الغيتو،

© 2015 Litrix.de

او من النبلاء.[10] مع ذلك فإن تفضيل التعليم باللغة الألمانية جاء مع تضحيات، كما ادرك الزوج كافكا – على آخر تقدير – في اجتماع أولياء الأمور الأول: لم يكن هناك مدير هنا، لأن الميزانيات لم تسمح. إدارة البلدية لم تعتني بالمدارس العامة الألمانية عن حسن خاطر، الخطط لتوسيع المدارس كانت تعطل، وبهذه الصورة كانت هنا ظروف التي لا تتعارض فقط مع قوانين التدريس القيصرية، ولكن ايضاً لم تتوافق مع المعايير التربوية، الرعاية الصحية والنظافة السائدة في ذلك الوقت. بالتأكيد، فإن أطفالاً من عائلات برجوازية – ايضاً – كانوا معتادين على مشاركة أشخاص آخرين بغرفهم الصغيرة نسبياً. ولكن رفض الجالية توظيف مدرسين ألمان جدد، أدى بالتعليم ليكون في بعض الاحيان الى ما يشبه التعذيب: ما بين الثمانين والتسعين تلميذ تزاحموا في غرفة تدريس كافكا، بعد السنة الثالثة فاق العدد المئة، فكان عليهم ان يقيموا صفين في التوازي بدون فصلهما عن بعض في غرف مختلفة. وفي أيام الصقيع لم يكن بامكانهم إغلاق النوافذ طوال الوقت في هذه الغرف المزدحمة، وفي كثير من الأحيان كان الطلاب يلقون على أنفسهم مهمات في الصف، لأن المدرس كان يكرس اهتمامه لصف آخر – الموجود في نفس الغرفة. حتى كطالب في السنة الأولى الإبتدائية كان على فرانتس ان يعود بعد الظهر الى المدرسة اكثر من مرة في الاسبوع، وكان هذا الشيء ممنوعاً، ولكن بسبب الأوضاع التربوية الشحيحة فكان ذلك اجبارياً. وزادت مع الوقت مواضيع التدريس: تعليم اللغة والإملاء في السنة الثانية، التاريخ الطبيعي والجغرافيا في السنة الثالثة،وأخيراً التعليم الأختياري للغة التشيكية، والذي كان على فرانتس أن لا يفوته ابداً، كما أشار الوالدين (وكان تحصيله دائماً "جيد جداً" في هذا الموضوع) والذي كان يتم دائماً في ساعات بعد الظهر. في النهاية كان عليه ان يجلس 27 ساعة في مقعده الضيق (ما يعادل 36 ساعة دراسية اليوم)، وحينما كان يترك المدرسة في الساعة الرابعة بعد الظهر – وأحياناً كان قد حل الظلام – لم تنتظره الحرية والصحبة، بل الوظائف المنزلية التي كان عليه إتمامها على طاولة الطعام المنزلية.

لم يترك كافكا ذكريات عن الدراسة في منطقة سوق الجزارين، ولكن ليس من الصعب تخيل كيف تمت عملية توصيل المعلومة في هذه الشروط القاسية: كان التعليم يعتمد على الحفظ،

© 2015 Litrix.de

والتقييم مقصوراً على اسئلة توضع بشكل ميكانيكي. عملية تعيسة، حتى بالنسبة للأهداف والوظائف التربوية المتبعة في ذلك الوقت. ولكن متى وكيف كان يمكن للمدرسين أن يخصصوا وقت للصعوبات الخاصة التي تواجه الطالب في التعلم او لمشاكله الخاصة ، في هذه الغرف المزدحمة؟ في كل موضوع تدريسي كان للمدرس ثماني دقائق بالضبط لكل طالب على مدار السنة، وفي ما بين التقييمات المكتوبة، اذن دقيقتين لكل واحد منهم — هذا الرقم الذي يبدو غير معقول قد حسبته مجموعة من الحقوقيين في 1896 في منشورة ألمانية.[11] كان هذا مبالغاً به بعض الشيء، ولكنه يصيب الهدف. في الواقع العدد الكبير من مواضيع التدريس، عذاب غرف التدريس، وشهادات التقدير التي وزّعت مراراً في السنة، أنتجت ضغطاً لا ينتهي، مبدئياً وضعية امتحان دائمة — وبذلك انتجت غرفة الضغط السلطوية التي كان يخافها ابن السادسة في طريقة الصباحية إلى المدرسة، ويمكن أيضاً من قبل ذلك، أي في حين لاحت امام بصره العمارة المرعبة.
لم تكن هذه المرة الأولى ولن تكون بالطبع الأخيرة في حياته، التي فيها يتحد الخيال والواقع الاجتماعي بشكل مرضي، يقوّيان بعضهما، ويكثفان تأثير بعضهما. وإدراك كافكا اللاحق أن الخيال أكثر من عالم الظلال، بل هو كَوْن بحد ذاته، هذا الإدراك جذوره هنا، في التصادم الأول مع العالم الكبير، الذي يبدو أنه لا يفعل شيئاً آخر إلا أن يرسخ الخوف المتخيّل.

فرصة للراحة المستمرة كانت في مرة واحدة في السنة، خلال العطلة الصيفية المطوّلة من بداية تموز الى منتصف ايلول. حسب وثائق لاحقة فإن عائلة كافكا كانت تستأجر غرف تصييف بسيطة في جوار براغ وذلك في أكثر ايام الصيف حراً - كان هذا يوفر مالاً ومكنهم من السفر دائماً الى المدينة والاشراف على "متجر الزقاق" الذي طبعاً بقي مفتوحاً طوال الوقت. أغلب الاحتمالات أن ايقاع حياة العائلة في سنوات دراسة كافكا الابتدائية كان على هذا الشكل: بيئة مغايرة، أقرب الى الطبيعة — غير مثيرة بشكل خاص ولكنها تعطي بعض الحريات — يمكن الاستمتاع بذلك في الصيف فقط، بينما فيما تبقى من الوقت في السنة، كانت تستمر الحياة بشكل روتيني. حتى في أيام الأحد كان ممكناً أن يقضي الأهل كل اليوم في المتجر، وأما زيارة المسبح العام سويّاً مع الأب - الذي لا يسبح وكان يذهب ليشرب الجعة فقط - كانت حدثاً

© 2015 Litrix.de

خاصاً.

التربية كتشكيل لمادة متناقضة: لم يلح بافق اي بديل لذلك، ليس بأفق الأب او الإبن، وتسامح الأم البديل لم يعتبر تربية، بل عائق أمامها. أن هناك صور مختلفة للسلطة الذكورية، التي لها وجه مغاير جداً، وجه إنساني أكثر، هذا الشيء لاحظه كافكا في المدرسة فقط، ولكن في حينها كان الشيء متأخراً بالنسبة له.

في السنة الثالثة والرابعة الابتدائية درسه رجل شائب بعض الشيء اسمه ماتياس بيك، وكان معلم يهودي ملتزماً جداً من الناحية التربوية، وفي خارج إطار المدرسة كان يدرس في غرفة صغيرة "الإيمان الموسوي".[12] طبعاً كان في حصصه يتم التعليم بحسب برنامج الحفظ عن ظهر قلب، ولكن بيك كان مهتماً بالطلاب من ناحية إنسانية، راقب تطوّرهم، تحدث معهم أيضاً خارج أوقات الحصص – والذي كان شيئاً غير معتاداً – وقدم المشورة الى أهاليهم. بالرغم من العبء والضغط في الوقت كان بيك قادراً على أن يحافظ على علاقات شخصية، وأن يحوّل محبته للطلاب الى دافع للتعلم. وهكذا فقد طلب منهم مثلاً قبل أن يتركوا الابتدائية أن يزوروه في البيت وأن يعرضوا عليه شهاداتهم من السنة الثانوية الأولى. كان هذا بالنسبة له شيئاً مفيداً من ناحية علمية، وذلك لكي يعرف إن أصابت توقعاته التربوية حول قابلية الطلاب للتعلم في الثانوية، وبالنسبة للطلاب كان الشيء محفز إضافي على التعلم والمثابرة. وبالفعل أخذ كافكا وصديقه هوغو بيرغمان هذه الدعوة بجدية – وما كانا سيعرضانه عليه جيد بما فيه الكفاية لكي يُقْدِمَان سوياً على دخول أكثر الأماكن قداسة، ألا وهو الحيز الخاص لشخصية ذي سلطة. ولكن لم يكن تأثير بيك كافياً لكي يشكك كافكا بالصورة التراتبية للعالم التي كان يحملها، والخوف المستقى منها، ولو بأدنى شك. في العاشرة من عمره كان كافكا يدري أن التكيّف والتجنب هي استراتيجيات نافعة في صراع البقاء، وقد نجح بفعل هذه التقنيات. وعلى أي حال، لم يكن في الثانوية شخص مثل الاستاذ بيك.

إنتقال "كافكا فرانتس" إلى الثانوية وبدون أن يصاب بأذى، أشعر ذلك بيك بالارتياح، بلا

© 2015 Litrix.de

شك. لأنه، وإن كان يمكنه أن يكون اكثر من راض عن تحصيل الصبي، إلا أنه لاحظ أن كافكا كان هشّاً من ناحية جسدية، غير قادر على فرض ارادته، وفي تطوره الجسدي كان متأخراً بالنسبة لجيله. كان يتغيب في عددٍ كبيرٍ من الأيام عن المدرسة، عدد يفوق المعدل، وحتى في الايام الأولى للدراسة حينما كان يمر بالأمراض المعتادة، ومازال نفس الـ"الطفل الرقيق"، كما تتذكره الأم ايضاً في وقت لاحق. هل بإمكانه أن يتحمل زيادة العبء الدراسي؟ اربع سنوات تعليم في الابتدائية وسنة في الاعدادية كانت العادة، لكي يترفع المرء إلى الثانوية؛[13] فمن كان يريد الترفع بعد أربع سنوات كان باستطاعته فعل ذلك فقط بواسطة امتحان قبول. "دَعُوه يذهب إلى الصف الخامس،" قال بيك للوالدين "إنه ضعيف جداً، مثل هذه الزيادة في الطموح والعبء ستأتي عواقبها السيئة لاحقاً."[14] كان هذا هباء في الريح. أن يبقى طالب ممتاز سنة كاملة في وسط طلاب غير موهوبين وذلك من محض ارادته، بالاضافة لذلك يزيد من أعباء التكاليف – هذا الشيء لم يفهمه أي من أفراد العائلة الموسعة. وماذا سيقول كلى الهوغوان – بيرغمان وهخت – وأهليهما يريدون الاستعجال كذلك؟ ليس وارداً بالحسبان. الدين، الحساب واللغة الألمانية كانت مواضيع امتحان القبول الذي لم يكن صعباً جداً أو عائقاً أمام أي من الثلاثة، ومع أن واحداً منهم على الأقل كان بحالة رعب.

بعد عقود عندما تذكر كافكا نصيحة السيد بيك حاد النظر، كان عليه أن يوافقه الرأي. الإستعجال أتى بعواقب وخيمة، ظن كافكا، ولكن بشكل أسوء بكثير مما توقعه المدرس، وبشكل مغاير تماماً عما توقعه. لم تكن ملاحقة جسدية، بل نفسية، التي أدت ازدياد الإنشقاق بين الزمن الداخلي والزمن الخارجي، وادت الى ان تمر سنوات الدراسة مثل الحلم. وليس باستطاعة اكثر المربّيين حساسية وانتباهاً ان يتوقع شيئاً من هذا القبيل، ومع ذلك فإن ما حصل هو أن الاستاذ بيك، ومن دون أن يلاحظ، قد تنبّأ بشيء خطير جداً. "تسلية متنبأة"، هكذا سمّاها تلميذه السابق، الذي قد نجح بالعديد من الإمتحانات الأخرى، والذي يحيونه الآن بالقول "السيد دكتور". ولكن في هذا الوقت، كان الاستاذ قد قُبر منذ زمن بعيد.

© 2015 Litrix.de

الملاحظات

لا شيء يحدث في براغ

1. Neue Freie Presse، فيينا، 3 تموز 1883، ص 1.
2. الاقتباسات الحرفية من يوليا كافكا عن عائلتها اصلها من نص اوتوبيوغرافي قصير كتبته قبل سنتين او ثلاث من مماتها. والنص الذي ضاع قسم منه طبع في Alena Wagnerova „Im Hauptquartier des Lärms“, Die Familie Kafka aus Prag, S. 44 – 47. النسخة الأصلية لهذا النص موجودة في ارشيف هيلين تسيلبربيرغ [Hèlén Zylberberg] في Deutscher Literaturarchiv في مارباخ، المانيا.

كافكا، طالب ممتاز

1. Hugo Salus, „Freund Kafkus. Eine Kindergeschichte“, in: Neue Freie Presse, 19. April 1908, S. 101-104.
2. سجلات الشرطة تشير الى اكثر من خمسين شخص الذين كانوا يحملون اسم "فرانتس كافكا" في القرن التاسع عشر وكانوا يعيشون في براغ.
3. Egon Erwin Kisch, Aus Prager Gassen und Nächten, Berlin/Weimar, 1980, S. 362 ff.
4. الدستور السيسليثاني، بتاريخ 21 كانون اول 1867، المادة 19، الفقرة 3.
5. رسالة الى ميلينا يزينشكا، 21 حزيران 1920، في Franz Kafka. Briefe 1918 – 1920, hrsg. von Hans-Gerd Koch, Frankfurt am Main 2013, S. 191f.

© 2015 Litrix.de

6. يوميات، 21 تشرين الثاني 1911، في

Franz Kafka. Tagebücher. hrsg. von Hans-Gerd Koch, Michael Müller und Malcolm Pasley, Frankfurt am Main 1990, S. 261

7. يوميات، 8 تشرين الأول 1916، في

Franz Kafka. Tagebücher, S. 804.

8. رسالة الى الأب، في

Franz Kafka. Nachgelassene Schriften und Fragmente II, hrsg. von Jost Schillemeit, Frankfurt am Main 1992, S. 196f.

عن خلفية كتابة الرسالة، قارن الفصل "هرمان كافكا، معنوَن" في:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 314ff.

9. لتفاصيل موسعة عن تحصيل كافكا المدرسي وعن المعلمين في مدرسته الإبتدائية، قارن

Hartmut Binder, „Kindheit in Prag. Kafkas Volksschuljahre“, in: Humanismen Som Salt & Styrka. Bilder & betraktelser, tillägnade Harry Järv (= Acta Bibliothecae Regiae Stockholmiensis, Bd. 45), Stockholm 1987, S. 63 – 115.

10. مواد احصائية حول المدارس التي التحق بها كافكا، وخاصة بالنسبة للقدرات اللغوية والمذهب الديني، قارن

Ingrid Stöhr, Zweisprachigkeit in Böhmen. Deutsche Volksschulen und Gymnasien im Prag der Kafka-Zeit, Köln usw. 2010. بحسب هذه الدراسة فإن 90 بالمئة من زمائل كافكا في السنة الأولى الابتدائية تكلموا بالالمانية والتشيكية، في حين ان في المدارس الخاصة عند البياتريسيين كانوا 60 بالمئة فقط. وهذه علامة على ان في وسط اليهود الأغنياء كان بإمكانهم ان يكونوا مستقلين ثقافياً اكثر من وسط عائلة كافكا. وهذا الفرق ازداد مع الوقت، فبعد عقد من الزمن بقيت نسبة من هم ثنائيي اللغة في المدارس الابتدائية في المدينة القديمة كما هي، رسبت نسبة ثنائيي اللغة في مدارس البياتريسيين الى 12 بالمئة.

11. Die Verhältnisse an den öffentlichen Prager deutschen Volks- und Bürgerschulen und Vorschläge zu deren Verbesserung. Denkschrift des deutschen Vereins für städtische Angelegenheiten in Prag, 1896.

ادارة البلدية، هكذا يبدأ هذا التقرير (ص 3)، اعلنت "حرب إبداة" ضد نظام التدريس

© 2015 Litrix.de

الألماني. حتى وإن اخذ بالحسبان الدافع القومي لطريقة التعبير هذه، الا أن الصفوف المزدحمة ب140 طالب كافية لتصديق ما كتب حول الاصابات البدنية. والظروف لم تكن احسن بكثير اربع سنوات قبل كتابة هذا التقرير، اي عندما كان كافكا في سنته الرابعة الابتدائية. عرض اكثر موضوعية ولكنه بنفس الوقت منتقد لهذه الظروف، كتبه المؤرخ واستاذ الثانوية غوستاف ستراكوش–غراسمان، قارن

Gustav Strakosch-Graßmann: Geschichte des österreichischen Unterrichtswesens, Wien 1905, S. 334 – 337.

ولكنه ايضا لم يذكر في كتابه هذا ان في المناطق التي فيها اغلبية المانية ويسطر عليها الألمان في بوهيميا تصرفوا بشكل لا يقل لا مبالاة مع الطلاب في المدراس التي تتكلم التشيكية؛ حول هذا الموضوع انظر،

Hannelore Burger, Sprachenrecht und Sprachgerechtigkeit im österreichischen Unterrichtswesen
1867 – 1918, Wien 1995, S. 104 f.

12. لأن المدارس الإبتدائية في الريف كان فيها غالباً اربع فئات عمرية فقط، كان ذلك يضطر طلاب بالحادية عشرة من أعمارهم أن يسكنوا مع عائلات مضيفة في المدينة أو في داخليات، لكي يوفوا تعليمهم الإجباري.

13. في حالة عدم قدرة الطالب على الترفع الى المدرسة الثانوية (ما كان في حالة كافكا غير وارد بالحسبان)، كان عليه أن يتم سنتين في المدرسة الإعدادية، اي الصف الخامس والسادس. لأن التعليم في المملكة الاسترو–هنغارية قد قلص بسنتين، وذلك في سنة 1883، اي سنة ولادة كافكا، وذلك بسبب الضغوط التي مارسها اصحاب العمل. الصفوف السابعة والثامنة بقيت حتى انحلال المملكة اختيارية. بعدها وتحت إمرة حكومة تشيكية مستقلة اصبحت هذه الصفوف اجبارية مرة اخرى.

14. يوميات، 11 كانون أول 1919، قارن

Franz Kafka. Tagebücher, S. 846.

© 2015 Litrix.de